حول كتاب :

معروف الرصافي

— ٢ —

بقلم الاستاذ هادي محي الخفاجي

قال العلامة (ص١٢) « والحقيقة التي لابد من الاصحار بها مهما كان موقفنا من الفريقين (يعني الرصافي وخصومه) هي أن كثيراً من أعلام الأدب في هذه البلاد مغمورون يكابدون شظف العيش ويقاسون الأمرين ولا سبب لذلك على الاكثر إلا بلادة الشعور وجفاء الطبع اللذان جبل عليهما رهط من القادة والزعماء وما عرفوا به من شح وتقتير على نوابغ أمتهم في الفنون والأدب وما اشتهر القوم به من جمود شديد في تشجيع حركة النشر والتأليف والأخذ بيد الباحثين والمؤلفين » وهذه لفتة طيبة من معالي الشبيبي الأديب والسياسي إلى هذه الحقيقة المرة حقيقة وضع الأدباء في هذا البلد ؛ وهي لفتة ممزوجة بمرارة العتاب والتقريع للقادة والساسة الذين أهملوا الأدب والأدباء فلم يجودوا عليهم بشيء مما يرفع عنهم مؤونة العيش وأعباء الفقر والمرض — وما اكثر ما يبتلى بها الاديب في هذا البلد الفقير المريض الجاهل — ولكن المسألة في رأينا ورأى كل من ينظر إليها النظرة العلمية العملية ليست هي مسألة شح وتقتير ولا بلادة شعور وطبع حسب وإنما هي أيضاً وبالدرجة الأولى عائدة الى هذا النوع من أسلوب الحكم الذي استأثر رجاله ومن يمت إليهم بكل ما للشعب من حقوق وثروات ، ولا أظن الأديب يخرج في الاعم الاغلب عن كونه فرداً من أفراد الشعب يعيش كما يعيشون ويموت كما يموتون ، وإن وجد أديب يعيش في بحبوحة النعيم والرفاهية وذلك في النادر القليل فهو أحد أثنين : أما ان يكون أحد أفراد الطبقة الحاكمة (١) كما كان شوقي في العصر الحديث وكما كان ابن المعتز وأبو فراس في الزمن الخالي وإما أن يكون قد باع قلبه ولسانه وشعره وشعوره لتلك الطبقة وقبض الثمن دراهم معدودات أو منصباً من المناصب فقال بما تقول وائتمر بما تأمر وما اكثر الادباء من هذا الطراز في كل زمان ومكان !

والآن وبعد أن لم يبق في المقدمة ما يدعوني إلى التعليق.

[١] نعني بالطبقة الحاكمة الطبقة التي بيدها حقوق الشعب السياسية او الاقتصادية على السواء .

ب — ان الرسائل التي كانت بين ابي العلاء وداعي الدعاة بمصر في شأن اللحم وتحريمه يشتمل على ذكر رجل يعرف بتاج الامراء . وكان صاحب حلب من قبل المصريين فكيف يمكن تأويل هذا مع ان ابا العلاء نص في هذه الرسائل على انه هرم قد ادركه الفناء ؟

الجواب : ان تاج الامراء لقب رسمي من غير شك لأن التاريخ لا يعرفه بهذه الايام وانما هو وصف من اوصاف المدح التي أهداها داعي الدعاة الى صاحب حلب . فاما مايدل على ان حلب كانت تخضع لأمر داع الدعاة في ذلك الوقت فانه لا يخلو من امرين :

١ — ان المكاتبة كانت بعد أن تحسنت الصلاة بين مصر وحلب فاصبح من اليسير أن يطاع امر داع الدعاة من صاحبها .

٢ — ان مذهب الامامية قد كان شائعا بحلب على الرغم من خروجها على الفاطميين فليس من البعيد أن ينفذ فيها السلطان الديني للفاطميين وان امتنعت على السلطان السياسي .

واذا شئنا أن نبرهن على انتشار مذهب الامامية في حلب قلنا الى ذلك سبيلان :

١ — ما ذكره ابن خلدون من أن صالحا بن مرداس كان شيعياً وانه أقام الدعوة العلوية بالرحبة حين ملكها .

٢ — ما ذكره ياقوت في معجم البلدان نقلا عن ابن بطلان الطبيب المصري من انه مرّ بحلب سنة ٤٤٠ هـ فرأى الفقهاء يفتون فيها على مذهب الامامية (١) .

بغداد — [يتبع] — شمس الدين الخطيب

---

(١) راجع كتاب ذكرى ابي العلاء للدكتور طه حسين الطبعة الثانية من صفحة (٤٠ الى ٧٠)

عليه أبداً فأسجل ملاحظاتي على الكتاب فيما يلي :

يتساءل الاستاذ المؤلف في (ص ٨٨—٨٩) : « أين كان الشعب العراقي الذي عرف بالبسالة في تلك الحقبة الطويلة التي كانت البلاد تئن فيها أنيناً متواصلاً تحت نير الحكم العثماني؟ وما حقيقة موقفه إزاء هذه التطورات [يعني التطورات التي اعتورت الحكم في تركيا] ويقول : (وكان حرياً بهذه البلاد أن تتحين هذه الفرص المتاحة لتحقيق ما تصبو اليه من احلام الحرية والاستقلال ونستطيع ان نقول ان هذه البلاد لو حاولت ذلك لنجحت محاولتها وتحققت أحلامها) ولا أحسب أن الاستاذ فاته أن الشعب آنذاك — وقد أماتت السنون بتطاولها الشعور الوطني وقضت على النخوة العربية المتأصلة في نفوس أبنائه كما يقول حضرته — كان تعوزه اسباب الوعي واليقظة فلا صحافة ولا مدارس ولا ثقافة وإذن فلا رأي عام واع يقظ هذا الوعي وهذه اليقظة التي ما زلنا نحس بنقصها حتى اليوم رغم انه قد مر ما يقرب من نصف القرن على تلك الاحداث والفرص التي يأسف الاستاذ لعدم اغتنام الشعب العراقي لها بله الشعب العربي كافة بالرغم من توفر بعض أسباب اليقظة والوعي آنئذ لبعض الاقطار العربية الاخرى كسوريا ومصر اللتين سبقتا العراق في نهضتها بزمن طويل .

وقال الاستاذ [ص ٩٨] : « ولفظ هذا العهد الطويل المظلم آخر أنفاسه .... وجاء الانجليز يمنون بالحياة بعد الموت والعلم بعد الجهل والغنى بعد الفقر والصحة بعد المرض ويستقبل الرصافي هذا العهد بما ودع به عهد الاتراك آنفاً . يبتدئه بالتشاؤم ولا يزال متشائماً طول مدة الانتداب بل يتمادى في تشاؤمه في عهد الحكومة الوطنية .... وهكذا يقف الرصافي موقفاً سلبياً لم يكن له من مبرر ... » ثم يقول « الواقع أن الرصافي بارتضائه هذا المسلك لم يكن التوفيق رائده ولم يكن يحدوه الرشد . وقد كان له العذر أيام الانتداب وليس له شيء من العذر أيام الحكم الوطني » وما نحسب أن الرصافي قد أخطأ في كثير ولا قليل من تشاؤمه ولا أنه قد أخطأه التوفيق وفاته الرشد في موقفه السلبي هذا ، وإنما هو قد أصاب الاصابة كلها وكان التوفيق والرشد حليفه في كل ذلك التشاؤم المستمر . صحيح ان الوضع قد تغير كثيراً أيام الحكم الوطني عنه أيام الانتداب أو أيام الاتراك ولكنه اختلاف لم يتناول غير الشكليات والمظاهر هذه المظاهر والشكليات التي كانت أشبه شيء برواية من الروايات

ذات مناظر وذات فصول ولها أبطال ولكنهم أبطال « مسرح » وفيها حوادث ولكنها قصص تمثل فهي كما قال فيها الاستاذ الجواهري :

ورواية حبك الزمان فصولها ... فبدت لنا ممسوخة الادوار
من شرها اختلق الرواة ولفقت ... خيل . وضمت دفة الاسفار
وممثلين تصنعاً ووراءهم ... خلف الستار ملقن متوار

ثم يتحدث الاستاذ المؤلف عن هذه الثورة الجامحة ثورة الرصافي على الوضع وعلى القادة حديثاً طويلا معللا تلك الجملات بأنها نتيجة لحرمانه وسوء معاملته . ثم يذكر له شيئاً من قصيدته التي يقول في أولها :

« هي المواطن أدنيها وتقصيني ... مثل الحوادث أبلوها وتبليني

بعد أن قال عنها في [ص ١٠٥] : « وفي هذه القصيدة تستشف أن سوء المعاملة التي عومل بها الشاعر الحر هو سبب هذه الثورة الجامحة » وهذا صحيح الى حد ما — اي انه سبب تلك الثورة المباشر ، ولكن السبب الذي يكمن وراء ما ظهر من هذا السبب يعود الى أبعد من هذا . يعود — في رأينا — إلى الوضع بشكله العام لا الى حرمانه الذي هو نتيجة من نتائجه وغرض من أغراضه . فما كان ليرحم ذلك الوضع عدواً من أعدائه الالداء وخصما من خصومه الاشداء كالمرحوم الرصافي ، وما كان الرصافي ليسالم الوضع وأربابه فيبيعهم وحياته « بحياة شر منها الموت .

ويعجبني من الاستاذ ترفقه بالمرحوم الرصافي في لومه وعتابه إياه على اسرافه في هجائه أهل الشام ولم يعجبني ما كتب معالي الشبيبي في هامش الصفحتين [١١٦ — ١١٧] تعليقاً على ذلك . فقد كاد معاليه — وهو يطعن بالرصافي تلك الطعنات — يعيد لنا من حيث يدري أو لا يدري دور الرصافي وأهل الشام . وكاد يجعل بل جعل بالفعل منه شعوبياً من الشعوبيين الذين لم يتركوا بابا للنيل من العرب الا ولجوه ، مع ان القصيدة خاصة بهجاء فئة من السوريين أرادوا شيئاً فنصح لهم الرصافي بتركه ، فاتهموه بما اتهموه مما أحفظه عليهم لا على العرب فليس « فيها هجو مقذع للعرب لا يقدم عليه من يجري في عروقه دم عربي » كما يقول العلامة الشبيبي بل على العكس كان فيها كثير من مفاخر العرب ومكارمهم ذكرها في معرض ذمه لتلك الفئة . ولكن ما يؤخذ على الرصافي حقاً كما قال الاستاذ المؤلف انه : « جانب النصح والارشاد الى الهجاء والاقذاع ولم

يكن جديراً به أن ينحو هذا المنحى وهو الذي نصب نفسه مرشداً ومعلماً في مدرسة الوطنية التي يترفع فيها الزعيم عما يصيب شخصه أو يناله من كيد الكائدين » ولكن ما حيلتنا بل ما حيلة الرصافي نفسه في أمثال هذه النزوات وهو الشاعر الثائر النفس الهائج الأعصاب ؟؟

وجاء في هامش الصفحة (١٥٦) بقلم الشيخ الشبيبي : « أن مما يمتاز به أدب كل من الشاعرين الزهاوي والرصافي ما يسمونه تحرير المرأة ويراد بذلك أن تحذو المرأة المسلمة حذو المرأة الغربيـــة في حياتها .... وقد سبقهم إلى ذلك الكاتب الاجتماعي المصري قاسم أمين والذي نأخذه على هؤلاء أنهم يترسمون خطا الغربيين في استساغة سفور المرأة ومنحها ما يمنح الرجل من حرية ... » وما نحسب أن واحداً من هؤلاء أراد للمرأة عندنا سفوراً كسفور المرأة الغربية ولا ان تحذو حذوها في حياتها . فالرصافي لم يدع الى سفور المرأة إلا إذا عدمت الكاسب او حرمت الولي كما يقول الاستاذ بدوي هذا من جهة ومن جهة أخرى لم يدع الى سفور غير السفور الذي يتفق والشرع الاسلامي بل الذي أمر به الاسلام ونهى عن غيره ؛ ولكن سوء فهم كثير من الناس لآراء الرصافي ثم تعصبهم الأعمى لكل عادة هو الذي جعل الرصافي ومثله الزهاوي وقبلهما قاسم أمين في نظرهم اولئك الدعاة الى ما يسمونه « التبرج » .

قال الرصافي :

« وأكبر ما أشكو من القوم انهم
يعدون تشديد الحجاب من الشرع »

فأنت ترانه يقول « يعدون الحجاب » وإنما قال « تشديد » الحجاب اي هذا الحجاب الشديد الثقيل الدخيل الذي لم يأمر به شرع ولا دين ، وهذا هو الذي عناه الزهاوي ايضاً حين قال:

« لم يقل بالحجاب في شكله هذا نبي ولا ارتضاه حكيم »

وقال قاسم امين في كتابه « تحرير المرأة » (١) ص٥٥:

« ربما يتوهم ناظر اني اوى الآن رفع الحجاب بالمرة لكن الحقيقة غير ذلك . فاني لا ازال ادافع عن الحجاب واعتبره داخلا من اصول الادب التي يلزم التمسك بها . غير اني اطلب ان يكون منطبقاً على ما جاء في الشريعة الاسلامية ، وهو على ما في تلك الشريعة مخالف ما تعارفه الناس عندنا لما عرض عليهم من حب المغالاة في الاحتياط والمبالغة فيما يظنونـــه عملا بالأحكام حتى تجاوزوا حدود الشريعة واضروا بمنافع الأمة »

وقال معاليه في نفس الهامش من الصفحة [١٥٦ ايضاً] : « اننا نرى ان قضية المرأة وتحررها من القضايا التي يحلها الزمن ولا مناص من القول ان الدعوة الى سفور المرأة وتبرجها [كذا] على لسان الشعراء والأدباء هو آخر ما تحتاج اليه الشعوب الفتية الناهضة » ولا ندري ما ذا عني معاليه «بالزمن» هنا ؟ اهو الزمن المتكون من الايام واجزائها ومضاعفاتها تمر سوداً وبيضاً ؟! ان كان هذا فما نظن انها تقدم شيئاً او تؤخر شيئاً . ام هو هذه المراحل في تاريخ الشعوب التي تقطعها رجالا ونساء في كفاحها في سبيل نهضتها ونيل حقوقها ؟ اذا كان هذا — ولا يكون غيره — فما نظن ان قصيدة الشاعر او كلمة الأديب الا جزءاً — وجزءاً رئيساً — من ذلك الكفاح والنضال يأتي اولا وليس هو آخر ما تحتاج اليه الشعوب الفتية الناهضة .

وفي ص ١٩١ يورد الاستاذ طبانة قصيدة الرصافي في رثاء عبدالمحسن السعدون ومنها هذه الابيات التي يخاطب بها الانجليز ويحثهم على استدامة محبة العراق ووده بتحقيق آماله في الحرية والاستقلال :

هذي البلاد غرسوا فيها محبتكم ثم اقطفوا من جناها ودنا ثمرا
نكن لكم حلف صدق في سياستكم تمشي الى الموت من جرائكم زمرا

ويعقب عليها الاستاذ فيقول « وقد تعجب اشد العجب لهذا القول يصدر عن الرصافي من اظهار استعداد بلاده للولاء والنصرة ، ولعل قوله : « تمشي الى الموت من جرائكم زمرا » اعجوبة الاعاجيب وآية التناقض وتبدل الرأي عند الرصافي .

والذي نراه انه ليس هناك من تناقض او تبدل في الرأي ولكنه على ما اظن خاطرة من الخواطر اوحتها للمرحوم الرصافي

---

[١] يمكن رجوع القارئ الكريم الى هذا الكتاب وخاصة الباب الثاني من ص ٥٥ — ص ٩٩ ؛ ففيه بحث مستفيض عن حجاب المرأة وكيفيته من جهته الدينية والاجتماعية ، مما لا غناء لكل قارئ عن معرفته للوقوف على تناقض الرأي في هذا الرجل المصلح الذي رمي بما ليس فيه .